معاناة الكتابة

إنّ ما نستمتع بقراءته، من أجناس الأدب، كسرحة في قصة. أو شرود مع قصيدة. أو رحلة بين دفتي رواية. ليس، هذا، إلا الشيء الجاهز المعد من الأدب، الذي نقطفه بيسر وسهولة. كما نقطف الثمرة الناضجة من الشجرة. هو الجانب المضيء منه. أما جانبه الآخر، المقابل. فهو ما يتجلى، في ذلك الدهر، الذي يبذله الأديب، وهو يعاني آلام مخاض الإبداع. ويستدر ضرع الكشف. ويطرق باب المجهول، حتى يستجلي كوامن إلهامه، فيكتب لنا أدباً نستعذبه ونتملى صوره. وننتشي بسحر أخيلته، ونحن في ارتكاء مريح. أو ضجعة قبل النوم. ولنعلم أن كل ما يصدر عن خاطر الأديب، إن هو إلا من ذوب روحه وعصارة نفسه، قضى فيه الليالي الطوال، يتحمل عذابات التأمل، ويصبر على غنج القريحة الحرون ودلالها. يؤجج نار الاعتلاج. ينفعل. يغوص. يستنتج خلاصة رحلة الحياة الشاقة. ثمّ يروح بعد لأي مرير، يسكب آياته الإبداعية، في عملية خلق جديدة.

فالأدب ليس هو هذه اللحظات العذبة الجميلة، التي نستمرئها، ولا تلك الإرهاصات المجنحة الطموح التي نستشعرها، فحسب، بل هو أيضاً هذا العمل الخلفي الدؤوب. الذي نجد فيه تعميق الحياة وتكثيف الزمن، واستنفار الحواس وتوتر الأعصاب. فقراءة صفحة أدبية ما هي إلا تراكم من الزمن، وعامود طويل من الجهد

والعناء. إن بناء الكلمات لأتعب بكثير من بناء الحجارة. وإن ابتكار الصور واشتقاق المعاني لأصعب من شق الصخر. فدقيقة واحدة من القراءة يبيت لها الأديب ساعات وساعات، وهو مؤرق مشدود ذاهل يتجول في مخبؤات بواطنه وتجليات ذهنه الكنوز. يستلهم. يستشرف يرفض. يبذل، حتى يصل إلى بؤرة همومنا. فيحدثنا عن ذواتنا. ويستشف حدوسنا. ويلامس الجوانب الخفية فينا. أو يجد الشيء الضائع منا. يدلنا عليه ويضيفه إلى وجودنا. يحكي لنا قصة ذاك الحيوان الأزلي، القابع فينا، المعذب في إنساننا، والمضغوط بأثقال الوعي وأوجاع التبكيت والقسر. ولعمري. الغوص في أعماق المجهول، والتفتيش عن الأشياء المفقودة من قسمنا الإنساني الأعظم، أو إيجاد الأجزاء الناقصة من نفسنا الكبرى، التي نستكمل بها جميعاً شخصيتنا لهو عمل شاق. ولكنه سام وفوق العادة!

المصدر: كتاب (في معنى العمل – ومدلولات أخرى في التربية والفن والمنطق العلمي)